ISSN: 1994-4217 (Print) 2518-5586(online)

Journal of College of Education

Available online at: https://eduj.uowasit.edu.iq

Cultural Sustainability in Selected Poems of Al-Jawahiri and Al-Sayyab

Dr. Jasim Hussein Sultan Al-Khalidi

College of Education for Human Sciences – University of Wasit

Email: jsultan@uowasit.edu.iq

Keywords:

Sustainability, Culture, Al-Jawahiri, Al-Sayyab.

Article info

Article history:

Received 15.Febr.2025

Accepted 25. Mar.2025

Published 28. Aug.2025

A B S T R A C T

Literature — and poetry in particular—is considered a repository of collective memory and a space for negotiating identity and history. In the context of modern Arabic poetry, especially in Iraq, which witnessed radical political, social, and cultural transformations in the twentieth century, we find a fertile ground for exploring manifestations of cultural sustainability.

Mohammed Mahdi Al-Jawahiri and Badr Shakir Al-Sayyab stand out as two prominent figures in this field. Despite the differences in their poetic and intellectual experiences, both engaged—consciously or unconsciously—in a deep dialogue with heritage, identity, and place, offering diverse visions on the continuity and rootedness of culture in the face of change and alienation.

This study aims to conduct an in-depth analysis of how the concept of cultural sustainability is embodied in selected poems by both poets. It explores both artistic and thematic mechanisms, situates their experiences within their historical and cultural contexts, and draws upon additional critical perspectives.

© 2025 EDUJ, College of Education for Human Science, Wasit University

DOI: https://doi.org/10.31185/eduj.Vol60.Iss3.5565

الاستدامة الثقافية في نماذج من شعر الجواهري والسياب

أ.د. جاسم حسين سلطان الخالدي

جامعة واسط / كلية التربية للعلوم الإنسانية

الملخص:

يُعدُّ الأدبُ، والشعرُ ومنه بطبيعة الحال، مستودعاً للذاكرة الجمعية وساحة للتفاوض مع الهوية والتاريخ. وفي سياق الشعر العربي الحديث، ولاسيما في العراق الذي شهد تحولات سياسية واجتماعية وثقافية جذرية في القرن العشرين، نجد حقلًا خصبًا لاستكشاف تجليات الاستدامة الثقافية.

يقف محمد مهدي الجواهري وبدر شاكر السياب علمين بارزين في هذا المضمار، وعلى الرغم من اختلاف تجربتيهما الشعرية والفكرية، فقد انخرط كلاهما، بوعي أو بغير وعي مباشر، في حوار عميق مع التراث والهوية والمكان، مقدماً رؤى متباينة حول سبل استمرار الثقافة وتجذرها في مواجهة عواصف التغيير والاغتراب.

يهدف هذا البحث إلى تحليل معمق لكيفية تجسيد مفهوم الاستدامة الثقافية في نماذج مختارة من شعرهما، مستكشفاً الآليات الفنيّة والموضوعيّة، وواضعاً تجربتيهما ضمن سياقاتهما التاريخيّة والثقافيّة، ومستعيناً برؤى نقدية إضافية.

الكلمات المفتاحية: الاستدامة ، الثقافية ، الجواهري ، السياب.

المقدمة

في زمن تتسارع فيه التحولات وتتزايد التحديات التي تواجه الهويات الثقافية في المجتمعات العربية، يبرز مفهوم "الاستدامة الثقافية" بوصفه إطاراً حيوياً لفهم آليات البقاء والتجدد الثقافي. لم يعد المفهوم مقتصراً على الأبعاد البيئية أو الاقتصادية، بل امتد ليشمل، وبشكل جوهري، قدرة المجتمعات على الحفاظ على ممارساتها ومعارفها وتعبيراتها الثقافية الحيوية ونقلها عبر الأجيال، مع التأكيد على مرونتها وقدرتها على التكيف والتطور في سياقات متغيرة من دون أن تفقد جوهرها وقيمها الأساسية.(UNESCO، ٢٠١٩؛Dibley ، ٢٠١٤) يتجاوز هذا الحفظ السلبي للتراث ليشمل عمليات ديناميكية من إعادة الإنتاج والتفسير الإبداعي التي تضمن استمرارية فاعلية الموروث في الحاضر والمستقبل، وهو ما يُعرف أحيانًا بالصمود أو المرونة الثقافية (Cultural Resilience) (عبد اللطيف، وعبد الغفار، ٢٠٢٠).

يُعد الأدب، والشعر ومنه بطبيعة الحال، مستودعاً للذاكرة الجمعية وساحة للتفاوض مع الهوية والتاريخ. وفي سياق الشعر العربي الحديث، ولاسيما في العراق الذي شهد تحولات سياسية واجتماعية وثقافية جذرية في القرن العشرين، نجد حقلًا خصبًا لاستكشاف تجليات الاستدامة الثقافية.

يقف محمد مهدي الجواهري وبدر شاكر السياب علمين بارزين في هذا المضمار، وعلى الرغم من اختلاف تجربتيهما الشعرية والفكرية، فقد انخرط كلاهما، بوعي أو بغير وعي مباشر، في حوار عميق مع التراث والهوية والمكان، مقدماً رؤى متباينة حول سبل استمرار الثقافة وتجذرها في مواجهة عواصف التغيير والاغتراب.

يهدف هذا البحث إلى تحليل معمق لكيفية تجسيد مفهوم الاستدامة الثقافية في نماذج مختارة من شعرهما، مستكشفاً الآليات الفنيّة والموضوعيّة، وواضعاً تجربتيهما ضمن سياقاتهما التاريخيّة والثقافيّة، ومستعيناً برؤى نقدية إضافية.

أولاً: الاستدامة الثقافية، الذاكرة، والأدب:

ترتبط الاستدامة الثقافية كما مرَّ من قبل . بالحفاظ الديناميكي على الموروث وهي تتشابك مع مفاهيم أخرى محورية؛ فالذاكرة الجماعية، كما يطرحها موريس هالبواكس (Maurice Halbwachs) ومن بعده، ليست مجرد استرجاع للماضي، بل هي بناء اجتماعي مستمر يتشكل في الحاضر ويستخدم الأدب والفن كأدوات رئيسية لحفظه وتناقله (هالبواكس، ٢٠١٦: ٣٤). وهنا يتضح أثر الشعر في نسج خيوط الذاكرة وتقديمها للأجيال اللاحقة. كما ترتبط الاستدامة بالهوية الثقافية، التي هي" ليست موروثاً ناشئاً عن جوهر لا يتغير أو بنية عقلية، أو نفسية، ثابتة، إنها حقيقة لا تحددها الغريزة، ولا تصوغها الفطرة، تشترك في تكوينها مجموعة كبيرة من العوامل، تتبلور في النهاية، كي تعطي ملامح مشتركة

وخصائص عامة يصح أن (نستعملها) في التعميم، إلى حد كبير. وتصبح الهوية الثقافية، بهذا المعنى، هي ما تحرص الجماعة على إظهاره على أنه ملامح ثابتة يتشابه فيها أعضاؤها، ويتماثلون في كثير من رؤاهم ومواقفهم" (مرسي، ٢٠١٣).

وهي ليست كياناً ثابتاً بل عملية تفاوض مستمرة بين الماضي والحاضر، بين الأصالة والمعاصرة، وهو ما يعكسه الأدب ببراعة، ويمكن عكس ذلك على الهوية الثقافيّة العربية أيضاً؛ ذلك أنها ليست شيئًا جامدًا بل هي حالة من التفاعل المستمر مع تراكمات الماضي وتطلعات الحاضر والمستقبل (بخاري، ٢٠٢٣).

والأدب لا يحفظ التراث فحسب، بل يعيد تفسيره، ينتقده أحيانًا، ويجد له مكانًا ضمن حساسيات العصر الجديد، مما يضمن حيويته واستمراريته. يتجلى ذلك في اللغة الشعرية نفسها، التي تحمل إرثاً ثقافياً وتاريخياً، وفي استلهام الرموز والأساطير، وفي تصوير الأمكنة بوصفها فضاءات للذاكرة والانتماء، أو حتى فضاءات للحنين والفقد الذي يؤكد قيمة الموروث المهدد بالضياع.

لقد "سعى الشعراء المحدثون إلى إعادة قراءة التراث بوقائعه وشخوصه؛ للكشف عن كنوزه، وإبراز ما فيه من قيم فكرية وفنية صالحة للبقاء والاستمرار" (الزواهرة، ٢٠٢١: ٤٩)، ذلك " إنه لا نجاة لشعرنا من الهوة التي انحدرت إليها بغير ربطه بتراث العريق" (زايد، ١٩٩٧: ٢٦٢)، وهو ما جعل الشعراء يعودون" إلى التراث الذي يشكل رافد اً أساسيا من روافد الحركة الشعرية المعاصر" (الزواهرة، ٢٠١٣: ١٣). ويندرُ أن نجد شاعراً حديثاً، لا يشكل التراث القديم مرجعية قارة في شعره؛ ولاسيما المبدعين منهم، من يضفي حداثة على ذلك التراث، ليفارق قدمه، ويبدو معاصراً ومحاكياً للقيم الثقافية المعاصرة.

ثانياً: السياق التاريخي والثقافي للشعر العراقي الحديث:

لفهم أعمق لتجربتي الجواهري والسياب، لا بد من وضعهما في سياقهما. شهد العراق في النصف الأول وبدايات النصف الثاني من القرن العشرين تحولات كبرى: من نهاية الانتداب البريطاني وتأسيس الدولة الوطنية، إلى ثورة ١٩٥٨م وما تلاها من تقلبات سياسية واجتماعية، وصعود تيارات فكرية وأيديولوجية مختلفة (القومية، الاشتراكية، الليبرالية). " فاذا كان الجواهري كما أرى، خاتمة مرحلة مهمة في الشعر العربي، من حيث المحتوى والشكل معا، فقد بلغ به أوجاً لم يكن لذلك النوع من الشعر بعده الا أن يضعف فعله في النفوس في عصر كثير التشوف والحركة والغليان، (فإن السيّاب" أضاف امتدادا صاعدا للخط البياني الشعري، ووصله بطاقة عنيفة فاعلة، وذلك حين أدخل أساليب وأنماطا ووسائل لم تكن في الحسبان، واقتحم به نواحي من النفس البشرية لم يمسها الشعراء السابقون الا من بعيد، لقد أعطى الشعر العربي حساً درامياً، لم يكن مألوفا من قبل، جاعلاً للقصيدة أبعاد المأساة، وتمكن من إبداع رموز جذورها عربية ومعانيها كونية – مما لم يتحقق في تاريخ الأدب الّا على أيدي أكبر الشعراء". (جبرا، ١٩٨٢م:٤٩)

كان الجواهري (١٩٠٠–١٩٩٧)، الذي لُقب بشاعر العرب الأكبر، معبرًا عن صوت الأمة والمجتمع في كثير من الأحيان، منتمياً إلى جيل الشعراء الكبار الذين طوروا القصيدة الكلاسيّة وربطوها بقضايا العصر، محافظاً على جزالة اللغة وقوة البيان مع انخراط عميق في الشأن العام، وقد صرح في مقالة له" أنَّ شاعراً أو أديباً عراقياً لم يحفظ البحتري وأبا نؤاس وابن الرومي، وأبا تمام والمتنبي، أو لم يدرس الجاحظ والأخطل والكامل وابن قتيبة وابن الاثير وأبا الفرج ودعبل ونهج البلاغة، لا يمكن أن يكون شاعراً ولا كاتباً أبداً". (الجواهري، ١٩٦١م)

وقد عبر جبرا إبراهيم جبرا عن ذلك بأن " هكذا يبقى شعر الجواهري، منذ البدء متصلاً متداخلاً في أعماقه، بل أن المرء ليدهش لهذه الجزالة التي تأتيه باكراً، فيكاد لا يصدّق أن قصيدة "عناد" كتبت قبل قصائد الاربعينيات والخمسينيات الحارقة بهذا الأمد الطويل". (جبرا، ١٩٨٢م:١١)

أما السياب (١٩٢٦-١٩٦٤)، فينتمي إلى جيل الرواد الذين" كانوا أسرع استجابة من غيرهم لضرورة التغيير، وإحداث الجديد، والبحث عن شكل شعريٍ بكرٍ، فإنَّ محاولاتهم لم تكن الأولى تاريخيّاً، فقد جرت قبل محاولاتهم محاولاتٌ عديدة، لكنّها انطفأت، ولم يكتب لها النجاح". (علي، ٢٠١٧م: ٦٥)

فقد أحدثوا ثورة في الشعر العربي بإدخال الشعر الحر (شعر التفعيلة)، متأثرين بالشعراء الغربيين، ومعبرين عن قلق الحداثة، والاغتراب، والبحث عن الخلاص الفردي والجماعي، ومرتبطين أشد الارتباط بالتراث الشعبي والأسطوري الرافديني وغيره، " فكان السياب ونازك، أكثر انصهاراً في بوتقة الواقع المعيش من شعراء آخرين اشتركوا معهم زمنيّاً" (الخالدي،٢٠٠٧م: ٢٥). كان كلا الشاعرين يعيش ويتفاعل مع مجتمع يتأرجح بين التمسك بالتقاليد والرغبة في التحديث، وبين الانتماء الوطني العميق وتحديات الاجتماعيّة والسياسيّة التي تواجه البلاد. ومن جهة أخرى، كان على وعي تام بأنَّ الأشكال الشعريّة عندما تبلغ حدَّها من النضج والقوة، فلابد من ثورة عليها، ومن هنا، يمكن عدَّ تجربة السياب الحداثوية، امتداد لتمرد الجواهري إلى ما يمكن عدّه تمرداً من نوعٍ أخر. (ينظر: جبرا، ١٩٨٢م: ٣٤-٣٥)

ثالثاً: الجواهري وتشييد صروح الذاكرة:

يتجلّى وعي الجواهري بأهمية الجذور والاستمرارية الثقافية في تركيزه على عناصر محددة تشكل ركائز مهمة للهوية العراقية والعربية. ولعل قصيدته "يا دجلة الخير" التي نظمها، كما يصرح الديوان: أنَّها" نُظمت في شتاء عام ١٩٦٢، وكان الشاعر يمر بأزمة نفسية حادة، أثر اضطراره إلى مغادرة العراق هو وعائلته، والإقامة في مغتربه في جيكوسلوفاكيا، وكان ذلك صيف عام ١٩٦١" (الجواهري، ٢٠٠١م: ٧٧٢) ، يمكن أن تكون أنموذجاً صالحاً لمفهوم الاستدامة الثقافية؛ إذ يقدم النهر بوصفه شرياناً للحياة والذاكرة.

تجسد هذه القصيدة " الطبيعة الإنسانية في ثورتها وهدوئها، في آلامها وأفراحها، في تحرقها وحنينها إلى ما تصبو، وإلى ما حرمت منه بسبب من الأسباب".

كما تظهر الارتباط الوجداني بالنهر بوصفه رمزاً للوطن والتجدد، مع ملاحظة، أن النهر لا يبدو رمزاً مكانياً، أو عاطفياً فحسب، بل هو ذاكرة طويلة لتاريخ طويل، يسرُّ مواجع هذه البلاد وأفراحها، ولذلك فإن استدعاء دجلة، هو استدعاء لذلك التاريخ الطويل. يقول: (الجواهري، ٢٠٠١م:٧٧٣)

حييتُ سفحَكِ عن بُعدٍ فحييني
يا دجلةَ الخير، يا أمَّ البساتينِ
حيّيتُ سفحكِ ظمآناً ألوذ به
لوذَ الحمائمِ بين الماءِ والطينِ

لا يعبر فقط عن الإحساس الذاتي، بل عن حاجة جمْعية للارتواء من نبع الأصالة في زمن مضطرب. إن قوة اللغة وجزالتها في هذه القصيدة هي بحد ذاتها فعل استدامة للغة العربية الفصحى بوصفها حاملاً أساسياً للثقافة: يقول الشاعر: (الجواهري، ٢٠٠١م: ٧٧٦)

يا دجلةَ الخيرِ والدنيا مُفارقةٌ وأيُّ شرٍ بخيرٍ غيرِ مقرونِ
لعل يوما عصوفاً جارفاً عَرِمَاً آتٍ فترضيك عقباه وترضيني

هنا، ثمة نبوءة، يرسلها الجواهري، تمثل " قوة حدس وبعد سياسي يختزل الزمن ويمتلك القدرة على صياغة أحداث المستقبل كما هي قبل أن تقع؟ لماذا أسر الجواهري لدجلة بما نعيشه الآن في شكل خوف وتوجس وتعميم لم نفهمه أو بالأحرى لم ندركه، إلا بعد أن عايشنا الحرب وما يحدث الآن؟" (محمد، ٢٠٠٣).

ولعل الجواب، أو بعض الجواب في قوله: (الجواهري، ٢٠٠١م: ٧٧٦)

يا دجلةَ الخيرِ: كان الشعرُ مُذْ رُسِمتْ كفُّ الطبيعةِ لوحاً سِفْرَ تكوينِ

إذ إنَّ الشعر ليس سوى بعض قراءة للغيبيات والأقدار منذ الأزل" (محمد، ٢٠٠٣).

إنَّ تعلق الشاعر بنهره، هو نوع من تأكيد هويته الثقافية، لذلك يجدُ القارئ أن هناك أيضا نوعا من الحب لمخلوقات ذلك النهر لدى الجواهري الذي تكلم حتى عن ضفادع دجلة، واصفا نقيقها بمراسيل مشفرة بين العاشقين" (المصدر السابق).

وهو ما تجسّد في مقصورته المعروفة؛ إذ يقول: (الجواهري، ٢٠٠١م: ٤٨٦)

سلام على جاعلات النقيقِ على الشاطئينِ بريدَ الهوى
لُعنتنَّ من صبيةٍ لا تشيخُ ومن شيخةٍ دهرَها تُصطبى

إن ذلك الحب، هو جزء من تعلق الشاعر بالتراث القديم، وقراءته المتنوعة، ولعله تناصاً خفي، مع قصيدة (ابن زريق البغدادي): (شوشة، ٢٠٢٠م: ١٥٣).

لا تغذليه فإنَّ العذلَ يُولعُهُ قد قلتِ حَقاً ولكن ليسَ يسمَعُهُ

وقد أحسن (سيدي محمد) حين قال: "لئن فاق الجواهري بمذاق العصر وفتنة المغايرة، والقدرة الفذة على إبداع الصورة الشعرية في منمنماتها، وتنويعاتها الإيقاعية، وبنَفَس شعري هو الأبعد مدى وغاية بالنسبة لأقرانه الكبار من شعراء العصر، فلقد سبقه في هذا العشق لدجلة ولبغداد ابن زريق عندما يهيم وهو بعيد بقمر دجلة المتراقص على وجهها" (محمد، ٢٠١٣).

وفي قصيدة "الفرات الطاغي)، يقدم الجواهري الفرات بوصفه عملاقاً مخيفاً "فصوره وهو يفيض بمياهه ليرعب البشر بهيجانه، ويتحداهم، ويتحدى قوتهم، رغم ما حصلوه بتقدمهم، واكتشافاتهم الهائلة، وكأنه يصوّرُ مارداً أسطورياً مخيفاً، فهو الذي يهب أسباب العيش أحياناً" (إبراهيم، ٢٠١٨). يقول الجواهري: (الجواهري، ٢٠٠١م: ٣٣٨)

طغى فضوعت منه الحسنُ والخَطَرُ وفاض فالأرضُ والأشجارُ تنغمرُ
وراعت الطائرَ الظمآن هيبتُه فمرّ وهو جبانٌ فوقه حذِرُ
كأنّما هو في آذيّه جبلٌ على الضفاف مُطلٌّ، وهي تنحدرُ
وودَّع الزارعونَ الزرعَ وانصرفوا للماء ما زَرَعوا منه وما بَذَروا

وواضح ثمة فرق كبير بين هذه القصيدة وقصيدة دجلة الخير، فإذا كان قد أسبغ على دجلة مظاهر الحب والجمال والدعة، فإنه في (الفرات الطاغي) "أسهب طويلاً في وصف قوة النهر الهادر، فهو الذي يخرّب المزروعات، ويهدم بيوت وأكواخ الفلاحين والفقراء، دون أن يلامس قصور الأغنياء، لا حبّاً بهم، ولكن لارتفاعها، فصار الناس يخافونه إن فاض، لأن شرّه أكثر من خيره" (إبراهيم، ٢٠١٨). ويبدو أن الأمر لا يتعلق بالفرات فقط، بل هناك قصيدة أخرى قالها في نهره (دجلة)،

يحضر فيها نفس الجواهري الغاضب، من سوء الأوضاع السياسية والاجتماعية التي تمر بها البلاد، وربما نجد في تفسير خلدون إبراهيم، ما يؤكد ذلك، ويزيد عليه، بأنَّ جعل الفرات رمزاً دائماً للقوّة المقلقة، وطغيانه يدمّر الأحلام، ويقتلعها من جذورها، معززاً قول هذا بهذين البيتين: (المصدر السابق)

في حينَ باتَ جميعُ الناسِ يُرهبُهم في كلّ ثانيةٍ من سيرهِ خبرُ
ملءُ القلوب خشوعٌ من مهابتهِ وملء أعينِهم من خوفه سهرُ (الجواهري، ٢٠٠١م: ٣٣٨)

وهو أمر توافر في قصيدته (دجلة في الخريف)، التي نشرها عام ١٩٤٦م فلقد "حاول أن يصنع من هذا النهر أيضاً البطل الذي لا حدّ لقوّته، أو أراد أن يكتشف بعضاً من أسراره، ومزاجه المتقلّب، ولكن النهر ظلّ مجرّداً من الأحاسيس الرقيقة التي كان يمكن أن تجعل منه مملكة للجمال، ومشغلاً للأحاسيس... فالنهر لا يزال مثل ذلك العبد الضال الذي لم يشع بعدُ نور الإيمان في قلبه". يقول الجواهري (وحيد، ٢٠٠٥):

بَكرَ الخريفُ فراح يُوعدُهُ أنْ سوف يُزبدُهُ ويُرْعِدُهُ
وبَدتْ من الأرماثِ عائمةً فيه طلائعُ ما يُجنّدُهُ

يرى سليمان جبران "أننا نظلم الجواهري وشعره، في الواقع، إذا اعتبرناه شاعراً كلاسيكيّاً فحسب، وحكمنا على شعره بمعايير الشعر الكلاسيكي فقط، دونما النظر في نواحي التجديد في قصائد كثيرة، كتبها في الاربعينيات والخمسينيات خاصة، سواء من حيث المضمون والصياغة". (جبران، ١٢/٦/ ٢٠١٧م)

في قصائد كثيرة، تحضر بغداد في قصيدة الجواهري، ليس بوصفها عاصمة فحسب، بل رمز للحضارة العربية الإسلامية وتاريخها التليد. في قصيدته "سلام على هضبات العراق" أو قصائد مشابهة، يمزج بين الفخر بتاريخ بغداد العباسية وبين ألمه لواقعها. هذا الربط بين الماضي والحاضر، بين المجد والألم، هو شكل من أشكال الحفاظ على الذاكرة الحية للمدينة، وتأكيد على هويتها الثقافية العريقة على الرغم من كل التحديات: (الجواهري، ٢٠٠١م: ٤٨٣.

سلامٌ على هضبات العراقِ وشطّيهِ والجرفُ والمنحنى
على النَّخلِ ذي السعفاتِ الطوالِ على سيّد الشجرِ المُقتنى
على الرُّطَبِ الغضّ إذ يجتلى كوشيِ العروسِ وإذ يُجتنى

إن تصوير المكان بوصفه حاضناً للتاريخ هو استراتيجية واضحة للاستدامة الثقافية.

رابعاً: السياب ومتاهات الحداثة: استدامة الثقافة في زمن القلق والانبعاث:

يقدم السياب رؤية أكثر تعقيداً وقلقاً، حيث تتجلَّى الاستدامة الثقافية عبر التوتر بين الحنين للجذور وقلق الحداثة، وبين الاغتراب والأمل في الانبعاث.

وفي هذا السياق، تأتي قصيدة "أنشودة المطر" التي حضرت فيها الطبيعة والأسطورة بوصفها رموزاً للتجدد، تمثل القصيدة نموذجاً لتوظيف الرموز الطبيعية العراقية (النخيل، النهر، المطر) ضمن بنية شعرية حديثة. المطر هنا ليس مجرد ظاهرة طبيعية، بل يكتسب أبعاداً أسطورية، فهو رمز للخصب والتطهير والانبعاث، وهو ما يرتبط بأساطير الخصب الرافدينية القديمة (مثل تموز وعشتار) التي درسها السياب وتأثر بها: (السيّاب، ٢٠٠٣م: ١/ ٢٥٣).

أتعلمين أيَّ حُزْنٍ يبعث المطر؟

وكيف تنشج المزاريبُ إذا انهمر؟

وكيف يشعرُ الوحيدُ فيه بالضّياع؟

يمزج بين الخصب والحزن، بين الأمل والضياع، مما يعكس تعقيدات تجربة الحداثة. لكن في النهاية، المطر هو الذي "يغسل الجراح" و"ينبت الزهور"، مؤكداً على قوة الحياة الكامنة والقدرة على التجدد، وهي جوهر الاستدامة. يقول السياب: السياب، ٢٠٠٣م: ٢٥٦.

في كل قطرةٍ من المطرْ

حمراء أو صفراء من أجنةِ الزَّهرْ

وكلّ دمعةٍ من الجياعِ والعراة

وكل قطرةٍ تراق من دم العبيدْ

فهي ابتسامٌ في انتظار مبسمٍ جديد

أو حلمةٌ توردت على فم الوليدْ

في عالم الغدِ الفتيّ، واهب الحياة

مطر...

مطر...

مطر...

إن ذكر المطر، لم يكن حكراً على السياب وحده، لكن ما يميزه أنَّه" قد أخذ هذا الرمز المركزي الخصب، ومدَّه بطاقاتٍ عظيمة تتلون بأحوالٍ نفسيّة متباينة تقترن بالحزن تارة، وتارة أخرى بالثورة". (عباس، ١٩٧٢م: ٢٠٤)، ثم انّه مدَّ جسوراً بين الطبيعة والإنسان، ليكسب التجربة الشعرية روعة الخلق وعمق الإدراك. (علوان، ١٩٧٥م: ٤٠)

وفي قصيدة "غريب على الخليج" ينظر السياب للاغتراب بوصفه وعياً بالفقد وتوق للعودة:(السياب، ٢٠٠١م: ١٨١)
الريح تلهث بالهجيرة كالجثام، على الأصيل

وعلى القلوع تظل تطوى أو تنشّر للرحيل

زحم الخليج بهنّ مكتدحون جوّابو بحار

من كل حاف نصف عارٍ

وعلى الرمال، على الخليج

جلس الغريب، يسرّح البصر المحيّر في الخليج

ويهدّ أعمدة الضياء بما يصعّد من نشيج

"أعلى من العبّاب يهدر رَغوهُ ومن الضجيج"

صوت تفجّر في قرارة نفسي الثكلى: عراق

كالمدّ يصعد، كالسحابة، كالدموع إلى العيون

الريح تصرخ بي عراق

والموج يعول بي عراق، عراق، ليس سوى عراق

البحر أوسع ما يكون وأنت أبعد ما يكون

والبحر دونك يا عراق

يستحضر السياب صورة الطفولة التي تذكره بالوطن وتربطه به، فيحاول بذلك أن يحفز نفسه ويدفعها للخروج من سيطرة الغربة والألم، وقد ربط ذلك بالحنين إلى الأم الرؤوم، فحياته دون الوطن والأم ظلام دامس، والشوق لأحدهما يعني الشوق للآخر، فحنان أمه الصافي يتجسد في صفاء الرؤيا لا الأحلام، لكنه في الوقت نفسه، مثل النخيل –الذي يرمز للعراق في كثرته– لكنه مصدر خوفٍ، قارة في مخيلة الأطفال، لأنّه ملاذ للأشباح في الليل، الأمر الذي يعكس السوادوية والانكسار في نفس الشاعر، كما يُشير إلى أنّ الغروب هو ما أدى إلى وجود الأشباح التي تخطف كل طفل عاش طفولة معذبة. إنَّ تلك الصور، تعبرُ عن اغتراب مضاعف: اغتراب عن المكان (الخليج) واغتراب عن الزمان (الماضي والتراث). لكن هذا الوعي الحاد بالفقد هو ما يحرك الحنين والرغبة في استعادة الوصل. "يجمع معظم الدارسين والنقاد على أن شهرة السياب لم تأتِ من شعره فحسب، ولكن ظروفاً سياسيّة وشخصيّة أسهمت في بناء كيانه ومجده حياً وميتاً. فقد تداخل الإنسان والشاعر في خطابه الشعري، حتى ليس بوسع القراءة النقدية للسياب أن تعثر بسهولة على تلك المنطقة الفاصلة بين حياة الشعر وشعرية الحياة". (الخالدي، ٢٠٠٧م:٣٥٧)، و(ينظر: فضل، ١٩٩٥م:٦٠) هذا التعبير عن الانفصال هو بحد ذاته فعل ذاكرة وحفظ غير مباشر لما تم فقده أو ما هو مهدد بالفقد.

ومن ذلك، " تكون الذات الشاعرة موضوعاً، وتكون اليوميات المأساوية صوراً شعرية، وتنحاز اللغة إلى المحكي لتكتسب أدبيتها أو شعريتها من انزياحات جديدة غير معنية بالتركيب المجازي أو الاستعارة والكناية، وقد تنحدر إلى مستوى المحظور". (شغيدل، ٢٠٢٤/١٢/١٨م)

في قصيدته "المومس العمياء" يستلهم السياب شخصية من الواقع الاجتماعي المسحوق ليقدم من خلالها نقداً اجتماعياً ورؤية تراجيدية للواقع العراقي. يقول السياب :(السياب، ٢٠٠٣م: ٢٧٠)

الحارس المكدود، والبغايا متعبات،

النوم في احداقهن يرف كالطير السجين،

وعلى الشفاه او الجبين

تترنح البسمات والاصباغ ثكلى، باكيات،

متعثرات بالعيون بالخطى والقهقهات،

وكأن عارية الصدور

اوصال جندي قتيل كللوها بالزهور،

وكأنها درج الى الشهوات، تزحمه الثغور

حتى يهدم او يكاد. سوى بقايا من صخور

في القصيدة نفسها، يقول: (السياب، ٢٠٠٣م: ٢٧٨-٢٧٩)

هم مثلها- وهم الرجال- ومثل الاف البغايا

بالخبز والاخمار يؤتجرون، والجسد المهين

هو كل ما يمتلكون، هم الخطاة بلا خطايا

وهم السكارى بالشرور كهؤلاء العابرين

من السكارى، بالخمور.. كهؤلاء الفاجرين بلا فجور

الشاربين- كمن تضاجع نفسها- ثمن العشاء

الدافنين خروق بالية الجوارب في الحذاء،

يتسامون مع البغايا في العشيَ على الاجور

ليوفروا ثمن الفطور

يعلق أحد الباحثين على هذه القصيدة " نلمس في كل القصيدة، ان مصير الانسان ليس مصيراً فردياً منعزلاً، انه جزء من المجتمع والتاريخ. وان في المجتمع قوى ظلم واضطهاد ودمار، ولكن فيه ايضاً قوى خير ومحبة. ففي المومس العمياء تتحرك الامور ضمن اطارها الموضوعي. الفرد هنا يعيش ضمن هذا الإطار، وفاجعته ليست خارجة عنه، انما هي جزء منه". (قيسي، وليد، ٢٠١٣/٤/١١م)

هذا النوع من الالتفات إلى المهمشين والحياة الشعبية، حتى في قتامتها، يمكن احتسابه شكلاً من أشكال الحفاظ على الذاكرة الاجتماعية والثقافية للمجتمع بكل طبقاته وتناقضاته، وهو جانب آخر من الاستدامة الثقافية التي لا تقتصر على التراث النخبوي أو التاريخ الرسمي.

وفي هذا يقول د. كريم شغيدل: إن البيئة الثقافية في العراق أنتجت أنموذجاً متكاملاً للتهميش، أي إنه يجسد هامشيته الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية والنفسية شعراً، وذلك من خلال هيمنة دلالات الحرمان والكبت والشعور بالإقصاء". (شغيدل، ٢٠٢٤/١٢/١٨م)

وهنا، تأكيد السياب على الشخصية المهمشة، والمضطهدة، جزء من العناية المعاصر بالاستدامة الثقافيّة، كما يعكس نقمة الشاعر على السلطة التي انتجت شخصيات مثل: المومس، حفار القبور، والمخبر، وغيرها. لأنَّ " الأدب الرسمي عادة ما يكون مرخصاً به من لدن السلطة ومقبولاً عندها ومتوافقاً مع وجودها وميولها الأيديولوجية، بينما يشكل الأدب الهامشي في غالبه الأعم وسيلة معارضة على مر التاريخ، لأنه يمثل ميول العوام والمتمردين والمجانين أو دعاة الجنون والصعاليك والشطار والعيارين وما إلى ذلك. زد على ذلك، لغة القصيدة السهلة المتيسرة للقارئ الاعتيادي، تمثل، نوعاً من الاستدامة الثقافية التي تبحث عنها الشاعر، وهو يعري السلطة الفاسدة التي عجزت عن انقاذ هذه المومس وأمثالها من الطبقات المهمشة.

خامساً: مقاربة ورؤى نقدية:

تختلف مقاربة الجواهري والسياب للاستدامة الثقافية اختلافاً بيناً يصوّر اختلاف الجيل والتجربة والرؤية الفنية.

يمثل الجواهري الاستمرارية الواعية والمباشرة. ويستعملُ لغة تراثية قوية وبنية عمودية راسخة لربط الحاضر بالماضي والتراث العربي والإسلامي والعراقي القديم. تركيزه على الرموز الكبرى (النهر، الأسطورة، المدينة التاريخية) يهدف إلى تثبيت الهوية وتأكيد الانتماء في وجه التحديات. خطابه غالباً ما يكون موجهاً للجماعة، محاولاً إحياء الهمم وتذكير الناس بأمجادهم وجذورهم.

في حين يمثل السياب الاستمرارية المتوترة والقلقة في قلب الحداثة. يستعملُ لغة أكثر همساً ورمزية وبنية حرة تتناسب مع التعبير عن القلق الفردي والجماعي. يستلهم التراث: اساطير وتراثاً شعبياً، ويمزجه بتجربته الذاتية ورؤيته للعالم الحديث. الاستدامة لديه ليست خطاباً واضحاً بقدر ما هي حلم بالانبعاث، وتوق للجذور، وصراع مرير مع الاغتراب والفقد والحاجة. فخطابه، وإن كان موجها للمجتمع حاملاً هماً إنسانيّاً، يمر عبر الذات الشاعرة ومعاناتها.

يرى الناقد "علي عبد المعطي البطل" من البديهي الا تظهر هذه الرموز الأسطورية دفعة واحدة في شعره، فقد كان تسلسلها متمشياً مع ظروف حياته التي كانت صراعاً مستمراً". (البطل، ١٩٨٢م:١٣٣)

بينما يؤكد نقاد آخرون على تمكّن الجواهري من اللغة؛ إذ استوعب أسرارها، وطرائقها في التعبير؛ فكانت اللغة ملكه وطوع جنانه، فاستنفد طاقتها وانحرف عن نواميسها في مواضع عدة، انحراف العارف بخصائصها، فكان يمتلك بصيرة لغوية فذة قلما تتاح لشاعر غيره". (غالب، ٢٠٠٥م: ٢٢١).

كلا الشاعرين، بطريقته المختلفة، أسهما في جعل التراث الثقافي عنصراً حياً في الشعر العربي الحديث، سواء بالاحتفاء به أو بالتفاعل النقدي والقلق معه.

الخاتمة

إن إعادة قراءة شعر محمد مهدي الجواهري وبدر شاكر السياب من منظور الاستدامة الثقافية تكشف عن عمق انشغالهما، وإن بطرق متباينة، بقضايا الهوية والذاكرة والتراث في مواجهة تحديات العصر الحديث. الجواهري، بشعره الملحمي وصوته الجهوري، عمل على ترسيخ أسس الهوية عبر ربطها بالمكان التاريخي والرموز التراثية الكبرى، مؤكداً على الاستمرارية والتجذر. أما السياب، بصوته الحداثي القلق ولغته الرمزية، فقد استبطن التراث والبيئة المحلية في تجربته الوجودية، معبراً عن التوتر بين الأصالة والمعاصرة، وعن حلم الانبعاث في قلب المعاناة والاغتراب.

تُظهر هذه المقاربة أن الاستدامة الثقافية في الأدب ليست مجرد عملية حفظ للتراث، بل هي عملية تفاعل خلاق تتضمن التفسير، والنقد، وإعادة الإنتاج بما يتلاءم مع سياقات الحاضر.

لقد ترك كلا الشاعرين إرثاً غنياً يمثل شاهداً على حيوية الثقافة العراقية والعربية وقدرتها على التجدد، ويقدم رؤى قيمة حول دور الشعر في الحفاظ على الذاكرة وتشكيل الهوية واستشراف المستقبل، مما يجعلهما مصدر إلهام دائم للأجيال القادمة المهتمة بفهم ديناميكيات الثقافة واستدامتها

المصادر والمراجع

*بخاري، مؤنس. (٢٠٢٣). الهوية العربية بين الأصالة والمعاصرة. منصة البخاري.

*جبرا، جبرا إبراهيم. (١٩٧١). النار والجوهر: دراسات في الشعر. المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر، بيروت، ط٣، ١٩٨٢م.

* جبران، سليمان، القديم والجديد في الصورة الشعرية عند الجواهري، الحوار المتمدن، ٦/ ١٢/ ٢٠١٧م.

* الجواهري، محمد مهدي. ديوان الجواهري. دار الحرية للطباعة والنشر، بغداد، ٢٠٠١م.

* الجواهري، المفردة حياة حافلة وليست حروفاً، مجلة الاديب العراقي، العدد الأول، شباط، ١٩٦١م.

* الخالدي، د. جاسم حسين سلطان، الخطاب النقدي حول السياب، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ٢٠٠٧م.

*الزواهرة، ظاهر محمّد، التناص في الشعر العربي، المعاصر، التناص الديني نموذجاً (ط١). دار الحامد للنشر والتوزيع، عمان– الأردن، ٢٠١٣م.

* الزواهرة، ظاهر محمّد، استلهام التراث في شعر صلاح جرّار– ديوان" في طريقي إليك" نموذجاً. مجلة جامعة الزيتونة الأردنيّة للدراسات الإنسانيّة الاجتماعيّة، ٢٠٢١م..

* زايد، علي عشري، استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر المعاصر. دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٧م..

* السياب، بدر شاكر، الأعمال الشعرية الكاملة. دار العودة، بيروت، ٢٠٠٣م.

* شوشة، فاروق، أحلى عشرين قصيدة حب، عمان، الأردن، الدار العربية للتوزيع والنشر.

*شغيدل، د.كريم، جريدة الصباح العراقية، ٢٠٢٤/١٢/١٨م.

*عباس، إحسان، اتجاهات الشعر العربي المعاصر. عالم المعرفة، الكويت، ١٩٦٩م.

*عباس، إحسان، بدر شاكر السياب: دراسة في حياته وشعره. المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٧٨م..

* عباس، عبد الجبار، السياب، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٧٢م.

*عبد اللطيف، عبد الحميد، وعبد الغفار، أسماء احمد، القيم المساهمة في دعم الصمود الثقافي لدى جمهور المصريين منذ بداية الالفية: تحليل نتائج مسح القيم العالمي في مصر من ٢٠٠١ حتى ٢٠١٨م. المجلة المصرية للعلوم الاجتماعية والسلوكية، ٢٠٢٠م..

* علوان، علي عباس، تطور الشعر العربي الحديث في العراق، اتجاهات الرؤيا وجماليات النسيج، منشورات وزارة الأعلام، بغداد، ١٩٧٥م.

*علي، عبد الرضا، قيثارة أورفيوس: قراءة في السائد والمختلف، العارف للمطبوعات، بيروت. لبنان، ط١، ٢٠١٧م.

*غالب، د. علي ناصر، لغة الشعر عند الجواهري، دار الصادق (ع) ط١، ٢٠٠٥م.

* فضل، صلاح، أساليب الشعرية المعاصرة، دار الآداب– بيروت، ١٩٩٥م.

* قيسي، وليد، مومس السياب العمياء، كتابات، ٢٠٢٣/٤/١١م.

* إبراهيم، خلدون. (٢٠١٨, ٣٠ يونيو). الجواهري.. ذلك النهر الثالث

* هالبواكس، موريس. (٢٠١٦). الذاكرة الجمعية (نسرين الزهر، مترجم). بيت المواطن للنشر والتوزيع، دمشق/ بيروت) .الأصل نشر عام ١٩٩٢ بعنوان.(On Collective Memory

*وحيد، شذا حاتم، الرموز التراثية في شعر الجواهري (رسالة ماجستير). كلية الآداب، جامعة بغداد، ٢٠٠٥م.

*مرسي، أحمد، الهوية الثقافية: ماهيتها وخصائصها. المجلة العربية للعلوم الإنسانية، (٣١)، عدد خاص، ٢٠١٣م.

*محمد، سيدي. (٢٠٠٣/ ٢٢ أبريل). دجلة والجواهري، هل كانا على علم بما يحدث للعراق. الجزيرة نت

* Dibley, B. (2014). Cultural sustainability: A crucial dimension for sustainability. Environment, Development and Sustainability, 16(4), 811-829.

* UNESCO. (2019). Culture for Sustainable Development. Paris.